الإمام الحسن المجتبى عمق في الاخلاق وحكمة في القيادة

أ.م.د. صالح جبار القريشي

كلية الفقه / جامعة الكوفة

الخلاصة

من خلال هذا البحث المقتضب بمجريات الصلح الذي تم عقده بين الإمام الحسن ومعاوية ونكول معاوية عن الإيفاء بالتزاماته تجاهه يمكن ان نؤكد على ما يلي :

١- ان مسألة الصلح الذي تم بين الإمام ومعاوية لم يكن نابعاً عن رغبة من الإمام ، ولكن المرحلة التي عاشها الإمام أفرزت هذه النتيجة التي لا مناص من اختيارها وذلك لأسباب كثيرة أهمها إصرار معاوية وتجنيده لكل الطاقات المالية والعسكرية والإعلامية في إبعاد الإمام عن دكة الحكم مما ساعد عن سوء فهم أصحاب الإمام في معرفة الامر إضافة إلى طمعهم في السير خلف معاوية وترك الإمام .

٢- على الباحثين والكتاب بمسألة الصلح هذا أن يفصحوا جلياً عن أغراض بني أمية في هدم عرى الإسلام والابتعاد عن القرآن العظيم والنبي الكريم 8 ونصب العداء له 8 ولأهل بيته مهما كانت النتائج والتضحيات .

٣- إن مسألة الصلح لم تتضح لكثير من الناس وأهل السواد إلى يومنا هذا ، ولعل الجميع يأثم إذا لم يبادر الشارد والوارد من حملة الأقلام في بيان كنهه وما خفي أعظم فابتعاد بين أمية وخصوصاً معاوية ويزيد وبقية المقربين منهم عن قيم الدين والشرف والاخلاق والعدل أزاحوا كل ما يتعلق بهذه الصفات جانباً وفضلوا مآربهم في تقتيل آل الرسول 8 وسلب حقوقهم التي أمر بها الله تعالى والقرآن العظيم .

٤- والدعوة الأخيرة ان يخاطب ذوي العقول بأن تتضح مفاصل هذا الصلح وأهدافه ومسبباته ونتائجه بعمق وفهم وتفسير وتحليل جوانبه ليفهمه المغفلون وأن تتضح هذه النتائج ويتم تعميمها ونشرها ، والدعوة على الاطلاع عليها بعمق كي لا يظلم الإنسان

نفسه في لصق التهم لإمام أراد له الله أن يسمو وهو أحد الذين حملهم رسول الله 8 على كتفه في حلّه وترحاله وفي صلاته ومحافله وطالما أشبعه حباً ووداً وتعظيماً .

المقدمة:

الحديث عن ائمة أهل البيت انما هو حديث عن الأخلاق والقيم العليا بل هو حديث عن الشرف والعفة بأعلى مراتبها، وبالتالي فهو حديث عن الإسلام بأكمله لأنهم المرآة العاكسة عن هذا الدين الذي أراد الله تعالى له ان يتألق ويسمو إلى قمم المجد والسعادة .

والحسن بن علي واحد من هذه المصاديق التي برزت كمنظومة أخلاقية ، فكان أمةً في فرد، فجاد بنفسه من أجل إعلاء كلمة الحق التي بدأها قبله جده وأبوه (عليهما صلوات ربي)، ومن اجل ذلك فهو الذي عاهد ربه ونفسه في أن يقتفي المنهج الذي رسمه له جده المصطفى 8 وعلَّمه على إتّباعه منذ نعومة أظفاره .

فالإمام الحسن تربّى على القيم المحمدية والسيرة العلوية والسكينة الفاطمية فهو بين ذلك وهذا وتلك غصن من شجرة العلياء تعطي ثمرها الطاهر لكل أرجاء الدنيا، وليس غريباً أن الشجرة المثمرة ترمى بالحجر على الدوام . ذلك طمعاً في لذيذ طعمها وعذوبة حلاوتها وطراوة نسيجها .

عمَّت أخلاقه كل من أحاط به فكانت شمائله وخصاله وطبائعه فيها طعم الجنان وأخلاق النبوة وسيماء الإمامة ، فهو البر التقي ، الصابر الزكي، المسامح الهاشمي ، المصلح الفاطمي .

لذلك ليس من الغريب ان يقصر الباحثون في احتوائهم ، وإحاطتهم لجزء يسير من عظيم كراماتهم وشرفهم وسؤددهم حتى تمنى أعدائهم ان ينالوا من كنهها اليسير .

ان تقصيرنا بعدم الاحاطة بعظيم كراماتهم لا يشفع لنا ولهذا يتوجب علينا ان نتحدّث عنهم أينما تطلب الموقف أن نذكرهم ، فهم كالنجوم التي يهتدي بها التائهون إذا أظلوا طريقهم في البيداء، أنهم نور السماء في الأرض ، وضعهم الله رحمة للعباد ليكفِّروا ببركة ذكرهم عن الذنوب والمعاصي . وبناءً عليه فأن هذا البحث المتواضع لا يستطيع الكشف عن الوجه المشرق للإمام إلا بصيصاً ربما نستبصر به عن ظلمات دربنا الطويل ، فارتئينا أن نرتشف قطرة من بحر خصاله الرائعة والمتمثلة بمبحثين هما :

١- الجانب الأخلاقي للإمام في ظل منظومة امتداده من دوحة الكمال والسؤدد والشموخ وعلى جميع اتجاهات القيم العليا والرفعة والسموفي مواجهة المؤامرات الاموية .

٢- الجانب القيادي : وهو الجانب المتمثل بالقيادة الفذة للإمام، وبيان مواقفه التي يعسر على أعدائه استيعابها فعكسوا مفاهيم عبقريته إلى ما لا يطيقون تفسيره ، فدعتهم تلك البلادة ان يطلقوا عليه لقب (مذل المؤمنين) ، ان عاصفة معاوية صمّت آذان السُذَّج عن سماع الحقيقة ، وسرعان ما

انبلج الصباح بوجه الحقيقة المشرقة فعرفوا بأنه السبط الذي تغذى من رحيق النبوة والعدالة والأخلاق والعبقرية والقيم العليا ، واستطاع بحكمته ان يصون دماء المسلمين ويحافظ على بقية الدين .

نحن ببحثنا هذا نريد ان نفصح عن هذين الجانبين محيلين قرائنا الأحبة إلى رعيل من المصادر ذات العلاقة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على فخر عباده المصطفى 8 وآله الغر الميامين .

المبحث الأول : الإمام الحسن وعودة السقيفة

ليس خفياً على من تتبع الأحداث التاريخية وتعامل معها بإمعانٍ ورويةٍ في أن يفوته التقييم الذي اتفق عليه العقلاء في ظلامة بني هاشم وما عانوه من جور بني أمية وسلاطينهم الذين ظلموا البلاد والعباد وتجرئوا على كل القيم الإنسانية .

ان هذه الجنبة من المشاعر لم تكن من جانب التعاطف مع بني هاشم أو آل بيت النبي بل ان هذه من الثوابت عند كل من عرف للإنصاف طعماً بين شدقيه لأن الحقيقة لا يمكن ان تغمط يوماً وأن الشمس لا يمكن ان تحجب بغربال في رابعة النهار.

وليعد بنا التاريخ إلى زمن الإمام أمير المؤمنين Δ عندما استخلف عمراً بعد الذي حدث من الويلات للإمام بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى .

فقد انقسم المجتمع السياسي آنذاك إلى كتلتين رعيل كان مع أمير المؤمنين Δ وتمثل هذا الخط ببني هاشم وأهل البيت وأنصارهم ممن عرف الحق طريقاً فسلكه ، والاخر وقد مثَّل المعارضة لبني هاشم واتباعهم وتمثل في جماعة ممن ناوئهم ووقف بوجههم ، لقد وقف ابن الزبير في زمن أمير المؤمنين في وقعة الجمل وهو يؤلب الناس على الإمام Δ ويستنصر بمن هبَّ ودبَّ للوقوف بوجهه وإسقاط مشروعيته التي وثَّق عراها مِنْ قبل رسول الله 8 وقد تناسى هذا الرجل من فرط حقده المطبق على أهل بيت النبوة حينما قال : ((أيها الناس إن علي بن أبي طالب قتل الخليفة بالحق عثمان ، ثم جهز الجيوش إليكم ليستولي عليكم ، ويأخذ مدينتكم ، فكونوا رجالاً تطلبون بثأر خليفتكم ، واحفظوا حريمكم ، وقاتلوا عن نسائكم وذراريكم وأحسابكم وأنسابكم ، أترضون لأهل الكوفة ان يردوا دماءكم ، واغضبوا فقد غوضبتم ، وقاتلوا فقد قوتلتم ، ألا وإنَّ علياً لا يرى معه في هذا الامر سواه ، والله لئن ظفر بكم ليهلكن دينكم ودنياكم)) [1].

ولعل الباحث المفوه لا تخفاه دوافع ونوازع هذا القول ، لأن هذا القول إذا عرضناه على صفحات التاريخ ومدى مصداقيته لعارضته تلك الصفحات ولرفضته الحقائق ومجَّته العقول ووقفت على عدم دلاليته الحجج والبراهين .

أن هذا الرجل وأمثاله هم الذين شعلوا نار الحرب ودقوا طبوله بنيران لا تطفأ فساهموا في خلق الأزمات على مر العصور واستغفلوا السذَّج من ذوي القلوب المغلَّفة الذين لا يميزون بين الناقة والجمل .

لقد قلب هذا الرعيل المنافق موازين القيم العليا للإنسانية ، وإذا اعتبروا ابن الزبير كونه قائداً فذاًلا ينافق ، فأن هذا القائد المضطرب قد سحب مشروعية العقل من مبتنيات قوله وحكم على نفسه بالجنون ، أنه كفر بقيم الإسلام منطقاً وفعلاً حتى ساقه الحقد الأعمى إلى ذم الإسلام ونبي الإسلام جملة وتفصيلاً ، لأن نبي الإسلام 8 لم يهمِّش علي في كل المحافل والمجالس سواء كانت حرباً أم سلماً ، ليلاً أم نهاراً ، جمعاً أم إفراداً ، حتى فارق الحياة وهو يلهج بذكر مناقبه التي لا يمكن لأي مسلم يركن إلى العقل ان يغفل عنها ، وبالتالي فقد كذَّب ابن الزبير على نفسه أولاً ثم كذَّب على ما اتفقت عليه معاشر الجن والإنس ، وهذا الكذب يتمثل بقوله ((والله لئن ظفر بكم ليهلكن دينكم ودنياكم)) [٢]، فأي دين هذا الذي أهلكه علي ، نعم ... انه دين الابتزاز والتهميش عن ثوابت الدين الحقيقية التي تمثل دين محمد .

اما معاوية فقد نسي قول حسان بن ثابت بحق أمير المؤمنين حين قال [٣]:

أبا حسنٍ تفديك نفسي ومهجتي وكل بطيء في الهدى ومسارعِ

فأنت الذي أعطيت إذ كنت راكعاً زكاةً فدتك النفس يا خير راكعِ

فأنزل فيك الله خير ولايةٍ وأثبتها أثنى كتاب الشرائع

يقول شبث بن ربعي بحق معاوية بن أبي سفيان مواجهة وهو أحد رجالاته وأقطابه المعتمدين وهي شهادة لا دليل أقوى منها على كذب ابن الزبير ونفاق سيده معاوية ((انه والله لا يخفى علينا ما تعزو وما تطلب ، انك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميل به أهوائهم ، وتستخلص به طاعتهم إلا قولك ، قتل إمامكم مظلوماً – يريد به الخليفة الثالث –

فنحن نطلب بدمه ، فاستجاب له سفهاء طغام ، وقد علمنا ان قد أبطأت عنه بالنصر ، واحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ، ورب متمني أمر وطالبه ، الله عز وجل يحول دونه بقدرته ، وربما أوتي المتمني امنيته وفوق أمنيته ، والله مالك في واحدة منهما لئن اخطأت ما ترجو ، لأن شر العرب حالاً في ذلك ، ولئن اصبت ما تمنى ، لا تصيبه حتى تستحق من ربك صلي النار ، فاتق الله يا معاوية ، ودع ما أنت عليه ولا تنازع الامر اهله ...)) [٤] .

أقول : على المتلقي والباحث ان يدرك أوجه المقارنة بين قول ابن الزبير وقول شبث بن ربعي ، فهما يتفقان في عدائهما للإمام علي Δ ويختلفان في مستوى المصلحة الخاصة فكل منهما يلهث ورائها بغض النظر عن مصلحة الإسلام وأهله ، ولو وضعنا نصب أعيننا النصين المذكورين لهما في أعلاه لوجدنا بأن معاوية وجماعته قد وضعوا الدين وسيلة للوصول لغاية معينة حصيلتها الحصول على حب الدنيا وشراء ذلك بكل القيم مهما بلغت من أثمان باهضة لضرب القيم الإنسانية والعقدية والأخلاقية .

ان الفضيحة التي فضح بها شبث بن ربعي صاحبه بهذا القول لا تخرج إلا عن معنىً واضحاً لا سبيل لحمله على وجه آخر من المعاني ، فهو قول صريح يعنف به صاحبه ويوضح سروره بقتل عثمان لأنه بقتل عثمان صار بهذه الحالة من الهيمنة التي هو عليها حسب نص قوله ، ثم أن شبث قد وضع النقاط على الحروف في وصفه له بشكل أكثر وضوحاً بأنه – أي معاوية – قد أبطأ عن ان يدرك صاحبه بمعونة – أي عثمان – لأن بمقتله يستطيع الحصول على مراميه ، كما أوضح بأنه شر العرب حالاً ، وأخبره بنتيجته النهائية التي ستحتمها أفعاله الخائبة بأنه سيصلى النار الكبرى بقوله ((حتى تستحق من ربك صلي النار)) ، وختمها بأن اخبره بأن الامر الذي تتنازع من أجله ليس أمرك فدعه لأهله ، وذلك بقوله ((ودع ما أنت عليه ولا تنازع الامر أهله ....)) [٥] .

بربك أي هراء في محتويات ومضامين الدين هذا الذي يحدثه معاوية وشبث بن ربعي وعمرو بن العاص وابن الزبير وطلحة وامثالهم ، انهم على هدف واحد ونقول على ذلك نعم ، لكن الحق سيسمو بفوزه على الأباطيل لأن السماء من ورائه وما النصر إلا من عند الله .

وأقول أيضاً : أن عصر الرسالة حتى استشهاد امير المؤمنين كان فيه الاسلام جديد عهد ، وكان على المسلم ان يرمم ما أصاب جسم الدين من جراح ، فهل ان مثل هذه التصرفات تساعد على ترميم ما قد أبلته الأحداث وأضعفته الأهواء في الدين .

لقد عاش الإمام الحسن بن علي في خضم هذه الأحداث منذ بداياتها، ففتح عينيه على كرامات جده المصطفى سيد البشرية ونبي الإنسانية ورسول السماء الذي به ختمت طهارة الأنبياء (عليهم صلوات ربي أجمعين) .

ثم تلتها مرحلة الأئمة الأطهار الذي بدأها أبوه أمير المؤمنين فغذاه على ما بدأ به جده المصطفى وعلَّمه قيم السماء والسلامة في المواقف العامة وخدمة الدين الحنيف مهما بلغت التضحيات وبهضت الأثمان .

فبعد استشهاد أمير المؤمنين بدات المحن تتشابك على الإمام الحسن وكانت البداية مع دق طبول الحرب فتلقفت أذناه منذ البدء هذه النغمات التي كان يحسنها معاوية وزبانيته .

نعم .. لقد كانت البداية مع الإمام الحسن بن علي بأفول نجم التوازن السياسي بسبب ازدياد نفوذ معاوية بن أبي سفيان وكثرة أطماعه في شؤون الدولة وارتباك أهل الحق عن معرفته وأتباعه ، فبادر الإمام أمير المؤمنين بإرسال الإمام الحسن بصحبة عمار وابن عباس (رضي الله عنهما) إلى الكوفة ليشعره بمدى ثقته بوفرة عقله والاعتماد عليه في أمر يخص البلاد والعباد من جهة ، كما أعطى مسوغاً لنفسه في أنَّ علي لا يمكن أن يُؤثر نفسه على غيره فسبط رسول الله وولده وحبيبه قد أرسله إلى قعقعة السيوف واصطكاك الأسنَّة من جهة أخرى ، ولم يستشعر الإمام الحسن بهذه المهمة إلا خيراً لأنه أدرك بأنه المواسي الأقرب لوالده إذا دق ناقوس الخطر[٦]، ولعل هذه الأسباب هي التي دفعت ابن عباس ان يقترح على الإمام علي في إرسال الحسن معهما إلى الكوفة .

وقد رسم الإمام الحسن خارطة الرأي الذي أُرسل من أجلها إلى الكوفة بشكل دقيق فأوجز وأصاب بقوله عند ما ارتقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه وذكر جده المصطفى فصلى عليه وذكر فضل أبيه وسابقته في الإسلام وقربه للنبي، وذكر بأنه أولى بالأمر من غيره [٧] ، كما تعرض لخيانة طلحة والزبير في بيعتهما لأبيه بقوله : ((معاشر الناس : إن طلحة والزبير قد بايعا علياً طائعين غير مكرهين ، ثم نفرا ونكثا بيعتهما له ، فطوبى لمن خف في مجاهدة من جاهده ، فإن الجهاد معه كالجهاد مع النبي ثم نزل)) [٨] ، نعم لقد اختصر الإمام الحسن فانتصر .

وبقي الإمام الحسن يمارس أعماله في قيادة الأمة منذ أن أهَّله أبوه إلى تحمل أعباء أمته منذ فترة شبابه شاقاً طريقه وسط تهويشات الحاقدين وبائعي الضمير الذين ساقتهم المطامع الخاصة تحت قيادة زعيم الشذوذ والانحراف معاوية بن أبي سفيان ، وبعد استشهاد الإمام علي في الحادي والعشرين من رمضان عام ٤٠هـ تسلم الإمام الحسن رسمياً زمام قيادة الأمة لينال قسطه من الجهاد الأكبر مشمِّراً عن ساعديه ببصيرة نافذة وجِنان ثابت[٩] .

ويشير المفيد إلى نفاذ بصيرة الإمام الحسن في تطلعه لمهام الدولة بتشكيل جهاز مراقبة دقيق لنشر سلطان دولته الإسلامية الجديدة بعد أبيه حيث أن جهازه قبض على أحد عيون معاوية في الكوفة وهو يبشر بخلافة معاوية وينشر فضائله المزعومة وهو يُغرق الناس بالأعطيات والدراهم التي سرقها معاوية من الجياع[١٠] .

ولأن معاوية لا يهمه إلا ان يعيش متسلطاً على رقاب الناس متربعاً على دكة الحكم سواء كان هذا برضا الله أم بغيره ، هذا والأموال تغدق على الإعلام الكاذب في ذم أطهر بيوت الدنيا وأشرفها وأعظمها سؤدداً ونبلاً ، ولأن الناس عبيد الدنيا وتُبّاع الدراهم ، فقد أشاع الإعلام الكاذب لمعاوية أقاويلاً ، دعى من خلالها معاوية جيش الإمام لمكافئتهم بمبالغ قدرها ألف درهم[١١] .

وبدأت موازين القوى لجيش الإمام في الأفول نتيجة لأسباب كثيرة منها أنّ الإمام لا يتجرأ على صرف درهماً واحداً من بيت المال بدون مسوغ شرعي لاعتقاده بأن الله مسائله على ذلك يوم القيامة أين ومتى وكيف وضع المال الذي صرفه الحاكم؟ ولأي شيء وما هي مردوداته؟ . في حين كان معاوية لا يرعوي لحساب رب أو ضمير أو عرف . مما دفعه ان يشتري الذمم بخزينة البلاد التي سيقت اليها الأموال من جباية الفقراء والمعوزين لإشباع كروشهم سحتاً وحراماً وتجنيد الفيالق لضرب الشرفاء وكبح المحاولات التي من شأنها رفع المستوى المعاشي للمحرومين والمسحوقين .

ولعل ابن عباس قد وضع النقاط على الحروف في وصف معاوية وانصف بقوله : ((وأعلم انك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء الإسلام حتى ظهر أمر الله ، فلما وحَّد الرب ، ومحق الشرك ، وعز الدين ، اظهروا الإيمان ، وقرئوا القرآن مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى ، وأدوا الفروض وهم لها كارهون ...)) [١٢] .

المبحث الثاني : الإمام الحسن وسعيه في الحفاظ على بيضة الاسلام

عاش الناس وسط ظروف دُقت بها الطبول إلى الحرب من قبل معاوية من اجل انتزاع الملك انتزاعاً من أصحابه الشرعيين فعاشت الناس ابشع حالات التوتر ، واختلطت الأمور عليهم ، فأخذ الأخ يحذر من أخيه ولا يأمن الجار إلى جاره ، فالقلوب يكتنفها الرعب ، والعيون مشرئبة لانتظار لحظات الحسم ، وكان الجميع يدرك تماماً بأن شيئاً مريباً سيحدث بين صفوف هذه الأمة ليقطعها أوصالاً ، ومن هنا ((طلعت على معسكرات الحسن ألوان الأراجيف ، وعمرت سوق الرشوات ، وجاء في قائمة وعوده – أي وعود معاوية – التي خلب بها الباب كثير من الزعماء أو المتزعمين : رئاسة جيش ، وولاية قطر ، ومصاهرة على أميرة أموية !! وجاء في أرقام رشواته النقدية ألف ألف – مليون –))[١٣] .

ولم يجد الإمام الحسن بُدّاً من استفحال الرذيلة التي جنّد معاوية نفسه إليها ، حيث لم يكن بوسع الإمام إلا أن يستسلم لواقع اجتمعت فيه الأمة على الباطل ، فالأموال بيد معاوية تصرف بلا وازع ولا ضمير ولا دين ، والأعراض تهتك بلا رقيب ، والضرائب تجبى من ضعاف الناس بلا حماية أو استعطاف ، والناس لا يفرقون بين الناقة والبعير ، فما كان بوسعه إلا يعرِّف من جهله بحسبه ونسبه لئلا تكون للعباد حجة عليه أمام الله فقد قام خطيباً وقال : ((أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد 8 ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله عز وجل بأذنه ، وأنا ابن السراج المنير ، وأنا من أهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول {وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً}[١٤]،فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت))[١٥].

ولم يقف الإمام الحسن موقف المنكسر أمام عنفوان الطاغية ، وجبروت البغي ، وصلف المتمردين ، بل أفهم معاوية وأخبره بموقعه وقيمته ، وجعل الناس على علمٍ من معرفة كنهه ، وعلَّمهم أن لا يغفلوا في ترئيس قومه واستيزارهم على مصالح الأمة لأنه ينتمي إليهم فتوارثوا الحقد الدفين على متبنيات السماء وركائز الدين الذين هم آل بيت النبي الأكرم الذي لم يترك المطالبة بودهم والوقوف إلى جنبهم لحظة واحدة .

لقد عاصر الإمام الحسن أبشع طاغية عرفه التاريخ ، طاغية لم يرعوي لدين أو ضمير أو شرف أو إنسانية .

يقول الأستاذ طه حسين ((كان معاوية رجلاً نشأ نشأة قرشية جاهلية، فيها كثيرٌ من الشظف الذي ليس منه بد لقوم يسكنون وادياً غير ذي زرع)) (١٦) .

وللأستاذ في هذا القول وضوح وإن أراد به طلاء العبارة بالذهب ، إلا ان العبارة أبت إلا ان يظهر الحق من فلتات لسانها .

انه أراد أن يعطي مسوغاً لطبعه الجاهلي فعلله بشظف العيش الذي تعرض له معاوية في الوادي القاحل ، وقد نسي طه حسين انه ليس كل من سكن هذا الوادي كان جاهلياً، غليظ قلب ، إن هذا الوادي أنتج أناساً تسلقوا قمم المجد فأصبحوا مثلاً للأخلاق والقيم والكمال يتوجهم سيد الخلق أجمعين محمد.

ويواصل الأستاذ قوله بعبارة لا محيص منها ، انه يقول : ((حتى أحصيت عليه أغلاطه ومخالفاته – أي معاوية – عن السنة الرشيدة التي ألفها المسلمون)) (١٧) ، وفي هذا اعتراف واضح بأن معاوية قد شذَّ عن نهج النبي الكريم في مخالفاته لوصاياه وأفعاله .

هنا يتطلب الأمر من الإمام الحسن وهو يعيش جنباً إلى جنب مع هذا الرجل الذي فقد صوابه وأملاه الظرف على حياة المسلمين ، يتطلب منه أن يخلِّص الأمة من خطر محدقٍ لاحت مخاطره في الأفق جلية وأدرك انه لا مناص من تسليمه الحكم لأنه إن لم يهادنه سينتزعه إنتزاعاً ولم يبق عندئذ لدار الإسلام من باقية .. نعم هكذا كان معاوية .. قد قرروا وانتهى الامر ، وهذه الوثائق التاريخية لا عدَّ لها التي تتضمن هذه المعاني

ناهيك عن إدراك الإمام Δ بانه سيخسر بخيانة جنوده ، أو ببراعة الفتن التي تسلح بها عدوه)) (١٨)، فقد قال للإمام أحد أصحابه المغرر بهم ((يا ابن رسول الله أذللت رقابنا بتسليمك الأمر إلى هذا الطاغية ، فأجابه الإمام : والله إني سلمت الأمر لأني لم أجد أنصاراً ، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بنيي وبينه)) (١٩) .

وهكذا فقد قرر الإمام تسليم زمام الحكم الى معاوية ، و لم يكن إقدام الإمام Δ ينم عن ضعف أو استكانة فأنه أملى شروطاً كثيرة على معاوية في حال انعقاد الصلح معه ، فبادر معاوية إلى القبول بها ووعد الإمام بأن يكون وفياً معه في تنفيذها(٢٠) .

وقد اشار صاحب المقبولة إلى مواقف الاحراج التي تعرض لها الإمام الحسن Δ بقبول الصلح مع معاوية بتصوير الموقف بقوله (٢١) :

بايع كرهاً لا عن اختيار خوفاً من الطغاة والفجار

وقلـــــة الأنصـــــار والاعـــــوان وكثـــــرة النفـــــاق والخـــــذلان

بيعـــــة كـــــره نالهـــــا معاويـــــة هـــي علـــى البصـــير غيـــر خافيـــة

ســـــعى لنيلهـــــا بكـــــل حيلـــــةٍ تمـــت بقتـــل ابـــن النبـــي غيلـــة

خـــذَّل عنـــه الصـــحب والأنصـــارا وأنفـــق الـــدرهم والـــدينارا

واســـــتعمل الحيلـــــة والخديعـــــة وحـــــاد عـــــن منـــــاهج الشـــــريعة

قـــال ومـــا اســـتحى أمـــام الأمـــمِ كـــل اشـــتراطٍ فهـــو تحـــت قـــدمي

كـــم لابـــن هنـــدٍ ســـيئات موبقـــه صريحة فـــي الكفـــر أو فـــي الزندقـــه

((واستعمل – معاوية – في سبيل هذه الفكـرة كـل قـواه وكـل مواهبـه وكـل تجاربـه ، واستجاب له كثير من باعة الضمائر الذين كـانوا لا يفـارقون الحسـن ظـاهراً فـإذا هـم عيـون معاوية التي ترى ، واياديه التي تعمل .

ومهما يكن من شيء فإن الإمام الحسن هو الذي بيده كتبـت معرفـة مصـالح العبـاد لأنـه المعصوم الذي تولى أمر المسلمين بعد أبيه ، لـيس لوراثـة تقمصـها أو لرغبـة ابتـدعها ، بـل لأنه الذي لا بديل عنه وفقاً لمتطلبـات هـذه المرحلـة ذات الخطـر الجسـيم، فقـد وزن الإمـام الأمور فكانت النتيجة ان الأصـلح للأمـة اسـتقرارها نسـبياً وعـدم الـدخول بحـرب لا يسـلم الرضيع منها ، لذلك فقد وفِّق الإمام بـالخروج مـن هـذه المطبـات بعقـد هدنـة أو صـلح مـع معاوية لتسلم الناس على جزء من دينها بدلاً من فقدانه جملة وتفصيلاً .

وكان هذا لا يدركه إلا المعدودين من الأمة لأن عقولهم لـم تعـد تحتمـل مـا تصـل إليـه رجاحة العقل التي تتوفر في شخص الإمام . فكانت فكرة الصلح التـي أقرهـا الإمـام رغـم مـا تعرض إليه من تأنيب بسبب هذا القرار الذي عدّوه من وجهـة نظـرهم لـيس مـن الأمـور التـي تروق لهم .

يقول صاحب كتاب (صلح الحسن) وهو من الباحثين المعاصرين الذين حصلوا على قصب السبق في براعة التحليل الرائع لعملية الصلح والتي قادها بنجاح من حيث معرفة مداخلها وأهدافها ونتائجها بأسلوب مفلسف بليغ يقول : ((انه الظرف الذي استعصى صلاحه بفساد ناسه ، ولا تثريب على الحسن من ظرفه إذا فسد ، وناسه إذا فشت فيهم الفتنة ، وإن لانحراف الطبائع حُكمه ، ولحداثة الإسلام خاصتها ، في القلقين من المسلمين أو في المفروضين على الإسلام فرضاً)) (٢٢) .

ونرى ان هذا القول قد أوجز صاحبه فيه فأبلغ ، وقد أبلغ فأجاد ، لأن المجتمع إذا فسد أفراده فلا محيص من شذوذه وإنحرافه ولأن الإمام الحسن فقد في هذا الظرف دور الناصر والمعين فقد آل على نفسه أن لا يكون البديل والمخرج من الفخ إلا إعلان هذا الصلح الذي لو توفر البديل عنه لما ذهب اليه الإمام Δ ، ولو توفرت للإمام Δ فرصة أخرى لما تركها على الإطلاق .

((وليكن هذا هو التصميم السياسي الذي نزل الحسن من طريقه إلى قبول الصلح ، ولتكن هذه هي الفذلكة التي استغفل بها معاوية فكانت من أبرز معاني العبقرية المظلومة في الإمام المظلوم)) (٢٣) .

والذي يؤيد صحة النص أعلاه من وجهة نظرنا انه لو افترضنا ودخل الإمام بحربٍ ضروس ضد معاوية فستكون النتيجة أن هذه الحرب لم تبقي ولم تذر ولم يبقَ من الإسلام شيء يعرف به أثر ولانتهت القيم الإنسانية والأعراف الأخلاقية والسنن الاجتماعية ولعادت الناس إلى جاهليتها كراً وفراً وقطعاً وقتلاً ولأصبح أعداء الإسلام يبوقون بأن هذا الدين فكر مرحلي وأسطورة قد انتهت بانتهاء قيم هذا الدين المكذوب .

فلا تثريب عليك يا ابن رسول الله حسب الموازين العقلية والمنطق الإنساني ، فما نهجك إلا استكمال لما بدئه جدك المصطفى فجزاك الله سيدي عن الإسلام وعن نبيه 8 خيراً في الحفاظ على قيمه ونهجه وسلوكه وسلام عليك يوم ولدت ويوم سقطت شهيداً مقتولاً فداءً لدربك القويم درب الأنبياء والصالحين والصديقين والأولياء .

والصلاة وأتم التسليم على النبي الكريم محمد بن عبد الله ورحمة الله وبركاته

هوامش البحث

١- نصر بن مزاحم : وقعة الجمل : ١٥٨ .
٢- م . ن : ١٥٨ .
٣- الآلوسي : روح المعاني : م٤/٦/٢٤٥ .
وانظر / راضي الحسيني : معرفة أهل البيت في ضوء الكتاب والسنة: ٣٨٧/١.
٤- الطبري : التاريخ : ٢٤٣/٥ .
وانظر / راضي آل ياسين : صلح الحسن : ١٥٥ وما بعدها .
٥- انظر هذا القول كذلك /أبو الفرج الأصفهاني : مقاتل الطالبيين : ٦٥ (خطبة الإمام الحسن)
٦- انظر في ذلك /
المفيد : الجمل : ٢٦١ .
٧- م . ن : ٢٦٣ .
٨- م . ن : ٢٦٤ .
٩- محمد حسين الصغير : الإمام الحسن : ٧٥ .
١٠- انظر /
المفيد : الإرشاد : ١٧٠ .
وانظر كذلك /
محمد حسين الصغير : الإمام الحسن : ٧٨ .
١١- انظر /
المفيد : الإرشاد : ١٧٠ وما بعدها .
وانظر /
رسول جعفريان : الحياة الفكرية والسياسية لأئمة أهل البيت Δ:٩٦
١٢- ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة : ٨/٤.
وانظر /
محمد حسين الصغير : الإمام الحسن : ٨١ .
١٣- راضي آل ياسين : صلح الحسن : ٢٤٨ .
١٤- الشورى / ٢٣ .
١٥- أبو الفرج الأصفهاني : مقاتل الطالبيين : ٦٢ .
١٦- طه حسين : الفتنة الكبرى : ٢٣٦ .
١٧- انظر /
طه حسين : الفتنة الكبرى : ٢٣٦ .
١٨- راضي آل ياسين : صلح الحسن : ٢٤٩ .
١٩- انظر /

الطبرسي : الاحتجاج : ١٤٩ .

٢٠- هادي كاشف الغطاء : المقبولة : ١٤٣ .

٢١- راضي آل ياسين : صلح الحسن ٢٤٨ .

٢٢- م . ن : ٢٤٩ .

٢٣- م . ن : ٢٥٠ .

مصادر البحث ومراجعة

القرآن الكريم

١- الأصفهاني (علي بن الحسين بن محمد ت٢٥٦هـ) : مقاتل الطالبيين : شرح وتحقيق السيد احمد صقر : منشورات دار الزهراء .

٢- جعفريان ، رسول : الحياة الفكرية والسياسية لائمة أهل البيت Γ: منشورات دار الحق : ط١ : ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م : بيروت – لبنان.

٣- ابن أبي الحديد (عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المدائني ت٦٥٦هـ) : شرح نهج البلاغة للإمام علي Δ : تحقيق أبو الفضل إبراهيم : دار إحياء الكتب العربية : ١٩٥٩م : القاهرة .

٤- حسين : الدكتور طه : الفتنة الكبرى عثمان . علي وبنوه : منشورات دار الجمال : بيروت – لبنان .

٥- الحسيني : راضي : معرفة أهل البيت Γ في ضوء الكتاب والسنة (دراسة وتحليل) : منشورات مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر : مطبعة شريعت : ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م : إيران – قم .

٦- الصغير : الأستاذ الأول المتمرس الدكتور محمد حسين : الإمام الحسن Δ رائد التخطيط الرسالي – رؤية معاصرة في قيادته الإستراتيجية – : منشورات مؤسسة المعارف للمطبوعات : ط١ : ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م : بيروت – لبنان .

٧- الطبرسي (أبو علي الفضل بن الحسن ت٥٤٨هـ) : مجمع البيان في تفسير القرآن : مطبعة العرفان : ١٣٣٣هـ + نفس الكتاب : منشورات محمد علي بيضون : دار الكتب العلمية : ط١ : ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

٨- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ت٣١٠هـ) : تاريخ الأمم والملوك : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم : دار المعارف : مصر – القاهرة : ١٩٧٠ م .

٩- كاشف الغطاء ، هادي : المقبولة الحسينية : تحقيق مؤسسة كاشف الغطاء العامة : ط٣ : مطبعة شركة صبح للطباعة : ١٤١٤هـ - ٢٠١٣م : بيروت – لبنان .

١٠- مزاحم ، نصر المنقري (ت٢١٢هـ) : وقعة صفين : تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون : مطبوعات دار الأندلس : ط١ : ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م : بيروت – لبنان .

١١- المفيد : (أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي ت٤١٣هـ) : الجمل والنصرة لسيد العترة في حرب البصرة : تحقيق السيد علي شريفي : منشورات مكتب الاعلام الإسلامي : ط١

: ١٤١٣هـ – ٢٠١٢م : إيران – قم . + نفس الكتاب : منشورات دار الأنصار : ط١ : ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م : إيران – قم.

١٢- الموسوي : قاسم : ومضات من حياة الإمام الحسن Δ : منشورات دار العلوم : ط١ : ١٤٣٤هـ – ٢٠١٢م .

١٣- آل ياسين ، راضي : صلح الإمام الحسن Δ : منشورات ناصر خسرو : ط٣ : ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م : بيروت – لبنان .